﴿٢٠٣﴾ واذكروا الله بالتّكبير والتّهليل والتّحميد في أيّام معدودات، هي أيّام رمي الجمار بمنى وهي: الحادي عشر، والثّاني عشر، والثّالث عشر وليس بلازم، وتُسمّى أيّام التشريق، لأنّ قوام الخير تقوى الله لا مقدار العدد، واتّقوا الله دائمًا واعلموا أنّكم إليه تحشرون مسؤولون عن أعمالكم.

﴿٢٠٤﴾ وإذا كانت تقوى الله هي الأساس، فالخسران لفريق من النّاس يختلف الذي تضمره قلوبهم عن الذي تنطق به ألسنتهم، أوتوا حلاوة في صوغ الكلام، يعجبك قولهم فيما يحتالون به على جلب المنفعة في الحياة الدّنيا، ويؤيّدون لك بزعمهم بأنّ الله يعلم صدق قلوبهم فيما تقوله ألسنتهم، وإنّهم لأشدّ النّاس خصومة لك وأقساهم عليك.

﴿٢٠٥﴾ وإذا تولّى ولاية يكون له فيها سلطان لا يكون سعيه للإصلاح، بل للإفساد وإهلاك الزّرع والنّسل، والله لا يحبّه، لأنّ الله تعالى لا يحبّ الفساد.

﴿٢٠٦﴾ وإذا نصحت له بالخوف من الله، ثارت في نفسه الحميّة وظنّ ذلك هدمًا لعزّته، وحمله على ارتكاب الإثم فيما نهيته عنه لجاجةً وعنادًا، فحسبه على ذلك عذاب جهنّم ولبئس المستقرّ.

﴿٢٠٧﴾ فما أبعد الفرق بين هؤلاء المنافقين وبين المؤمنين الصّادقين، الذين يبيع أحدهم نفسه في سبيل مرضاة الله، وإعلاء كلمة الحقّ، ويكون هذا النّوع من النّاس مقابلًا للنّوع الأوّل، ويكون تولّيه أمرًا من أمور النّاس من رأفة الله بعباده، والله تعالى يرحمهم بجعل الولاية لهؤلاء ليدفع بهم أذى الأشرار.

﴿٢٠٨﴾ يا أيّها الذين آمنوا كونوا جميعًا مسالمين فيما بينكم، ولا تثيروا العصبيّات الجاهليّة وغيرها من أسباب النّزاع والخلاف، ولا تسيروا في طريق الشّيطان الذي يدفعكم إلى الشّقاق فإنّه لكم عدوٌّ مبين.

﴿٢٠٩﴾ فإن انحرفتم عن هذا الطّريق الذي دعيتم إليه جميعًا من بعد ظهور الحجج القاطعة على أنّه طريق الحقّ، فاعلموا أنّكم مؤاخذون بهذا الانحراف لأنّ الله عزيزٌ يُعاقب من يُعرض عن سبيله، حكيمٌ يُقدّر العقوبة بقدرها.

﴿٢١٠﴾ وهل ينتظر هؤلاء المعرضون عن الإسلام ليقتنعوا أن يروا الله تعالى جهرة في غمامٍ مع الملائكة وقد قُضي الأمر بقطع مطامعهم، لأنّ الشّؤون جميعًا في قبضة الله يصرفها هو حيث يشاء وقد قضى فيها قضاءه الذي سينفُذ لا محالة.

الآيات ٢٠٤-٢٠٧

الناس إمّا منافقون وإمّا مخلصون

صفات ذي الوجهين المتكبّرين والصّادقين

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ .

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآيات (٢٠٤- ٢٠٥): عن السّديّ، قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي، وهو حليف لبني زهرة. إذ أقبل إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجب النبي ﷺ ذلك منه، وقال: إنَّما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أني صادق. وذلك قوله: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ ثم خرج من عند النَّبيّ ﷺ، فمرّ بزَرع لقومٍ من المسلمين، وحُمُر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمُر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [١].

وسُمّي الأخنس لأنّه يوم بدر ردّ ثلاثمائة رَجُل من بني زهرة عن قتال النّبيّ ﷺ وقَالَ لهم: إنّ محمّدًا ابْن أختكم وأنتم أحقّ من كفّ عَنْهُ، فَإِن كان نَبِيًّا لَمْ نقتله وإن كان كذّابًا كنتم أحقّ من كفّ عَنْهُ فخنس بهم [٢]- تأخّر بهم- فسلموا من القتل، فاشتهر بالأخنس.

سبب نزول الآية (٢٠٧) صُهيبُ الروميّ رضي الله عنه كان والدهُ حاكمَ مَنْطِقَةِ الأُبولا في العراق. فنشأ تنشئةَ أهلِ النَّعيم. غزاهُمُ الرُّومُ ووقع صُهيبٌ في الأَسْرِ. فأخذهُ الرومُ إلى دولتهم وباعوهُ. فاشتراه رجلٌ من مكة وأصبح صُهيبٌ عبدًا مملوكًا في مكة. ولكن رأى ذلك الرَّجُلُ على صُهيبٍ ذكاءً وفِطْنَةً وقُدْرَةً على العَمَل. فقال لهُ: أنا أُعْتِقُكَ وأُشارِكُكَ في التجارة. فوافق صُهيبٌ. وتاجرَ صُهيبٌ وصارَ من أثرياءِ الصَّحابَةِ ومن أوائِلِ من أسلموا. ولمّا أرادوا الهِجْرَة هاجَرَ رضي الله عنه وأرضاه خُفْيَةً كما فعلَ حينَها المُسلمون. ولَحِقَتْ به قريشٌ واقتربَتْ من إمْساكِهِ، فوقفَ صُهيبٌ رضي الله عنه من بَعِيْدٍ وقال: انْظُروا، إنَّكم تعلمون أنّي من أرْماكُمْ -أي أفْضَلِكُمْ بالرّمْي- أرْميْكُمْ ثُمّ تَقْتُلونّني. ولكنَّكُمْ لن تتمكنوا من قَتلي حتّى أَقْتُلَ منكم عَدَدًا. ولكنّهم لم يَدَعُوهُ. فقال: إنْ أعْطَيْتُكُمْ مالي أتتركوني؟ أجابوا: تُعطينا مالكَ كُلَّهُ! جِئتنا إلى مَكَّةَ عبدًا وصِرْتَ من الأثرياء. فإن تُعطينا مالك نَتْرُكْكَ. فَدلَّهُمْ على مالِهِ وتركوهُ. ثُم تابع صُهَيْبٌ فوصلَ إلى قُباء. وكان النَّبيُّ ﷺ هناك. وحين رآهُ النَّبيُّ ﷺ قال لهُ: «ربح البيع أبا يحيى، ربحَ البيعُ أبا يحيى، ربح البيعُ أبا يحيى» فقال: يا رسول الله عن ماذا تتكلم؟ فقال لهُ النَّبيّ ﷺ: «لقد اشتريتَ نَفْسَكَ واشتريْتَ دينَكَ».

فكان قد نزلَ جبريل وأخبر النَّبيّ ﷺ بأمر صُهيب ونزل فيه قرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ

(١) ذكره الطبريّ في تفسيره، عن السدي، باب: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ومِنَ النّاس من يُعجِبُك﴾، ج٣، ص٥٧٢.
(٢) ذكره مقاتل في تفسيره، باب: سورة البقرة، ج١، ص١٠٨.

ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالعِبَادِ﴾[1].[2].

المناسبة: ذكر الله في الآيات السّابقة أنّ النّاس في الحجّ صنفان: منهم من يدعو الله للدّنيا، ومنهم من يدعو للآخرة، وأنّ المقصد من كلّ العبادات هو تقوى الله، ومحلّ التّقوى هو القلب لا اللّسان، وهنا ذكر صنفين آخرين في ميزان التّقوى: منافق ومؤمن، الأوّل يظهر غير ما يبطن، والثّاني مخلص في عمله يبتغي مرضاة الله تعالى.

المعنى العام

يقول الحق ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومن النّاس قوم حلو اللّسان خراب الجِنان، إذا تكلّم في شأن الدّنيا يعجبك قوله فيها لرونقه وفصاحته، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ يظهر للنّاس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنّفاق، ويحلف على أنّ الذي في قلبه موافق للسانه، وأنّ ظاهره موافق لباطنه، ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ وهو أشدّ الخصومة والعداوة للمسلمين.

يُعطيكَ من طَرَفِ اللّسانِ حلاوةً ... ويَروغُ منكَ كما يروغُ الثّعلبُ

الألدّ في اللّغة الأعوج، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[3] أي عوجًا، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويروغ عن الحقّ ولا يستقيم معه، بل يفتري ويفجر، فعن رسول الله ﷺ أنّه قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[4] ومعنى: «وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»: أي قد يكون في الحياةِ شريكان أو زوجان أو صديقان، وبالتّالي فقد اطّلع أحدهما على أسرارِ وأمورِ خاصّة بالآخر، فإذا حصل فراقٌ بينهما راح الزّوج يتكلّم في حقّ طليقتِه، أو يتكلّم الشّريكُ في حقّ شريكه فصار عدوًّا فاجرًا.

وعن عائشة ﵂ عن النّبيّ ﷺ قال: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الخَصِمُ»[5].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ وإذا أدبر وانصرف عنك، ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ مشى فيها بنيّة الإفساد، فهو أعوج المقال، سيّء الفعال، فذلك قوله، وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة. ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فهذا المنافق ليس له همّة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، وهو محلّ نماء الزّروع والثّمار، والنّسل وهو نتاج الحيوانات التي لا قوام للنّاس إلّا بهما، وهذا ما فعل أعداء الإسلام بالتّعدّيات المسبّبة للانبعاثات المضرّة بالحرث والبيئة، ونشر السّموم والمواد المسرطنة في الطّعام والشّراب والدّواء والهواء ليفتكوا بالأمّة، ويسبّبوا العقم والإعاقات في النّسل. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ فيحبس الله القطر بشؤم معاصي أهل الظّلم والفساد، لأنّ الله لا يحبّ من كانت هذه صفته، ولا من يصدر منه ذلك، فضرره متعدّ. ولا يرضى تعالى بمن كان فيه خراب الأمور الدّينيّة ونظام الأحوال الدّنيويّة، وهو الفاسد الظّاهر فاحذروا غضبه. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ وإذا وعظ هذا الفاجر في

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
(٢) رواه الحارث في مسنده، عن سعيد بن المُسيب، حديث رقم: ٦٧٩، كتاب: المغازي، باب: ما جاء في الهجرة إلى المدينة وغيرها. ٦٩٣/٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو، حديث رقم: ٣٤، كتاب: الإيمان، باب: علامة المنافق.
(٥) راه البخاريّ في صحيحه، عن عائشة، حديث رقم: ٢٤٥٧، كتاب: المظالم والغصب، باب: قول الله تعالى: ﴿وهوَ ألدُّ الخِصامِ﴾.

مقاله وفعاله، وقيل له انزع عن قولك وفعلك، وارجع إلى الحقّ، وامتنع عمّا أنت عليه من الفساد ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ أبى وحملته الحميّة والأنفة والغضب بسبب الإثم الذي ارتكبه، أو على الإثم الذي يؤمر باتّقائه، فلا ينزجر عن غيّه. فهؤلاء أقوام استولى عليهم التّكبُّر، وزال عنهم خضوعُ الإنصاف؛ فَشَمَخَتْ آنافُهم عن قبول الحقّ، فإذا أمرته بمعروف قال: ألمثلي يُقال هذا؟! وأنا كذا وكذا! ثمّ يتكبّر عليك... فيقول: وأنت أَوْلى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر، فإنّ من حالك وقصّتك كذا وكذا...

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ كفته عذابًا وعقابًا، وهي عَلَمٌ لدار العقاب، كالنّار، ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ بئس الفراش الذي مهّده لنفسه، وهي كافيته عقوبة لتكبّره، وعدم اعترافه بذنبه.

ولمّا أخبر تعالى عن المنافقين بصفاتهم الذّميمة، ذكر مقابل ذلك صفات المؤمنين الحميدة، فقال ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي أنّ كلّ من بذل نفسه فباعها وبذلها لله في الجهاد وغيره، ابتغاء مرضاته والوصول إلى حضرته، ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فإنّ الله يدرأ عن الذين يفعلون ذلك المضارّ، ويجلب لهم المسارّ أينما حلّوا في الدّارين. وهذا الوصف في الآيات عام في المنافقين والمؤمنين.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. التّحذير الشّديد من الاغترار بفصاحة الرّجل وبيانه إذا لم يكن من أهل الإيمان والإخلاص والصّدق.

٢. أخبرت أن قومًا أعرضوا عن الحق سبحانه وتعالى فصاروا، في الظاهر، ألسنتهم واسعة ولبسوا البساطة في الكلام، لكن الله ربط على قلوبهم أسباب الحرمان؛ فهم في غطاء جهلهم، لا معنى وراء أقوالهم، ولا اعتماد على ما يقولون، ولا اتكال على إيمانهم، ولا ثقة بهم بأي وجه.

٣. شرّ النّاس من يفسد في الأرض بارتكاب الجرائم، ممّا يسبّب فسادًا وهلاكًا للنّاس والمواشي، وأعظم إفساد في الأرض، إفساد الدّين- إذهاب الأخلاق والصّدق والأمانة والرّحمة-، وإفساد وسائل الإعلام، والتّواصل الاجتماعي.

٤. الإشارة لِمَنْ كان سَعْيُه مقصورًا على استجلاب حظوظه، فهو لا يبالي بما يَنْحَلُّ من عُرى الدّين، ويهيّئ من أسباب الإسلام، بعدما تَشتدّ حبال دنياهم، وتنتظم أسباب مناهم، من حرام جمعوه، وحُطام حَصّلوه. فإذا خَلَوْا لوساوسهم وقصودهم الرّديّة سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدّنيا، واستعمالهم مَنْ يستعينون بهم في أمورهم مِنَ القوم الذين نزع الله البصيرة من قلوبهم، كحكّام هذا الزّمان وزعمائه الذين يسنّون القوانين لحقوق الإنسان وحماية الطّبيعة، وينظّرون بها وهم من يعيثون في الأرض الفساد، ويظلمون البشر والحجر والشّجر والمناخ والبيئة، ويدمّرون الآثار.

٥. قول الرّجل: الله يعلم والله يشهد، يُعتبر يمينًا فليحذر المؤمن أن يقول ذلك، وهو يعلم من نفسه أنّه كاذب فإنّها من أكبر الكبائر، فهي إمّا يمين غموس وإمّا كفر.

٦. إذا قيل للمؤمن اتّق الله، يجب عليه أن لا يغضب أو يكره مَن أمَره بالتّقوى، بل عليه أن يعترف بذنبه ويستغفر الله تعالى ويقلع عن المعصية فورًا، لأنّ فتنة الأمّة اليوم هي أن تؤثر دينك على دنياك، فلا تسمح في أن يتعارض امتثالك لأوامر الله مع هواك، لأنّ ذلك يدفع أبناءك إلى الكفر والشذوذ عن جادّة الاستقامة.

٧. من علامة الكِبر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾، لأنّ الكِبر يورث الكفر، ويوجب عذاب النّار.

٨. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أولئك الذين أدركتهم خصائص الرّحمة، ونَعتَتْهم سوابق القسمة، فآثروا رضاء الحقّ على أنفسهم، واستسلموا بالكليّة لمولاهم. والله رؤوف بالعباد، ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته.

٩. التّرغيب في الجهاد بالنّفس والمال لنشر الدّين والأخلاق المحمّديّة، وجواز أن يُخرج المسلم كلّ ماله في سبيل الله تعالى ولا يعدّ ذلك إسرافًا ولا تبذيرًا، فالإسراف هو الإنفاق الزّائد على متع الدّنيا، والتّبذير هو الإنفاق في المعاصي والذّنوب.

من أسماء الله الحسنى: الرّؤوف

شرح الاسم: معنى الرّؤوف من الرّأفة، وهي شدّة الرّحمة، فالرّأفة باطن الرّحمة، والرّحمة من أخصّ أوصاف الإرادة، لأنّ الرّحمة إرادة كشف الضرّ، ودفع السّوء بنوع من العطف، والرّأفة بزيادة لطف ورفق. فالأمّ يغلب عليها مظاهر الرّأفة، والأب تغلبه مظاهر الرّحمة.

التّعلّق باسم الله الرّؤوف:

طلب رأفته، والالتجاء إلى رحمته بكثرة الدّعاء، والرّغبة، ودوام الشّكر، والفرح بالمنّة.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- تنبّه من الذي يتشدّق بالدّين، ويحلف بالله أنّه من الصّالحين المحبّين، ولكنّ أخلاقه أبعد ما تكون عن الأخلاق المحمّديّة، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.
- حدّد شخصًا معاصرًا تظنّ أنّه ممّن شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، ثمّ تأمّل سيرته ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾. قيل: أهل الشّام يصلحون تدبّر الدّنيا وحسن المعيشة فيها، فمن كان فيهم زاهدًا فيها، صار وليًّا.

من الكبائر: ذو الوجهين واللّسانَيْن، وإذا خاصَم فَجَر

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ٧٦.

صفة مذمومة لكلّ من يعمل على إثبات وجوده بين أقاربه وجيرانه ومَن حوله بوجهَيْن يكيّفهما حيث يشاء، ويتلذّذ بهما في أذيّة الآخرين والسّعي وراء إفساد القلوب المتآلفة. يظنّ أنّ من حوله لا يعرف الدّور الذي يقوم به، ويعتقد أنّه بذلك الوجه المتلّون والقناع المزيّف يحقّق أهدافه السيّئة دون أن يُكشف أمره؛ **وذو الوجهين** من أخطر النّاس، ومن أصعب الشّخصيّات التي تواجهنا في حياتنا؛ لأنّه يُظهر لك الوجه الحسن، ويخفي الوجه القبيح الذي يستخدمه للطّعن في الآخرين. والمشكلة أنّ هذا الصنف من النّاس لا تكتشفه إلّا بعد فوات الأوان؛ فهو في نظر الجميع يمارس دورًا إصلاحيًّا، وواقعه يقول غير ذلك.

من شرّ الخصال أن يكون الإنسان مخادعًا عند افتراق النّاس، يُظهر لكلّ فريق أنّه معهم، وهذا النّوع من النّاس أشبه بالمنافق، فعن أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، أَكْرَهُهُمْ لَهُ، قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، وَتَجِدُونَ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ**»[1]. وبلفظ: «**تجد من شرّ النّاس يوم القيامة عند الله ذا الوجهين، الّذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**»[2].

ولذي الوجهين يوم القيامة عقوبة شديدة، جاء بيانها في حديث عمّار بن ياسر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ**»[3]. ولا يمكن لذي الوجهين أن يكون أمينًا عند النّاس، لأنّ رجلًا يسعى بالفساد بين الخلق، فينفث سموم شرّه وحسد قلبه بينهم، لا يرضيه وئام النّاس واجتماعهم، فهو رجل منافق ولئيم. وهذا ما قرّره النّبيّ ﷺ فقال: «**مَا يَنْبَغِي لِذِي الوَجْهَيْنِ أَنْ يَكُونَ أَمِينًا**»[4].

من الكبائر: الكِبر

الكِبْرُ هو شعورٌ خادعٌ بالعَظَمَةِ والتّجبُّرِ والتّرفّعِ عن العباد وعدمُ قبول الحقّ، وهو بالاستعلاءِ على النّاس، والتّرفّع عليهم وكلّ ذلك مصحوبٌ بِاحتقارِهم وازدرائهم والاستخفاف بِهم. وألّا يعترف الإنسان بخطئه، وأن يحتقرَ الآخرين ويزدريهم وأن ينكر الحقّ ولا يقبله إذا جاء عن طريقهم كبيرة من الكبائر.

قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾[5].

وعن رسول الله ﷺ أنّه قال: "«**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»[6]. ومعنى بطر الحقّ: الاستنكاف عن قبوله وردّه والنّظر إليه بعين الاستصغار، وذلك للتّرفّع والتّعاظم، ومعنى غمط النّاس: ازدراؤهم واحتقارهم.

(١) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٥٢٦، كتاب: فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب: خيار الناس.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٠٥٨، كتاب: الأدب، باب: ما قيل في ذي الوجهين.
(٣) رواه أبي داود في سننه، عن عمّار، حديث رقم: ٤٨٧٣، كتاب: الأدب، باب: في ذي الوجهين، الحديث حسن.
(٤) رواه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٧٨٩٠، مسند: المكثرين من الصّحابة، مسند: أبي هريرة رضي الله عنه، الحديث إسناده قويّ.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.
(٦) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٩١، كتاب: الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه.

من الكبائر: إيذاءُ الطّبيعةِ وتغيير خلقِ الله

إن تلويثَ البيئةِ مفسدَة. وَهو مِن الإفساد الّذي نهى الله عنه في مُحكمِ كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تُفْسِدوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها...﴾[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا تَوَلّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسادَ﴾[2]. ومن ذلك أمره ﷺ بإماطة الأذى عن الطّريق ونهيه عن البول في الماء الرّاكد والنّهي عن الإضرارِ بصفة عامّة.

وكذلك تغيير خلقِ الله بحيث يتلاعَب بالبذور ويُعدّلها جينيًّا بحيثُ يعود بالضّرر الصّحّيّ على عبادِ الله إذا ثبت ذلك طبيًّا، وقصدُه من هذا التّعديل الجينيّ المزيد من الأرباح دون مراعاة أضرارها النّاتجة لمن يأكلَ ثمراتها من النّاس. وكذلك يكون من مقاصد من يَعدل البذور تعديلًا جينيًّا الاحتكار إذ أنّ هذه البذره المعدلة جينيًّا لا تُنتج بذورًا، ممّا يضطر المزارعون أن يستوردوا البذور في كلّ سنة. قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدينَ﴾[3].

في الأخلاق والآداب

التّخلّق باسم الله الرّؤوف:

الرؤوف: يكونُ بأن ترأفَ بِالخَلقِ وتشعرَ بهِم وتتعاطفَ معهم وترحمهم، فتفرح لفرحِهم وتواسيهم في حزنهم وتشفق عليهم، وأن تشفِقَ على عبادِ الله وتسعى جهدَك في دَفعِ الضّرِّ عنهُم وحمايَتِهم مِن كلّ أذى.

النّصيحة: قال رسول الله ﷺ: "((الدِّينُ النَّصِيحَةُ)) قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: ((لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))"[4].

الشّرح: هذا الحديث عظيم، ويكفيك دلالة على أهميّته أنّه يجمع أمر الدّين كلّه في عبارة واحدة، وهي قوله ﷺ: ((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))، فجعل الدّين هو النّصيحة، كما جعل الحجّ هو عرفة، إشارة إلى عظم مكانها، وعلوّ شأنها في ديننا الحنيف.

والنّصيحة ليست فقط من الدّين، بل هي وظيفة الرّسل- عليهم السّلام-، فإنّهم قد بعثوا لينذروا قومهم من عذاب الله، وليدعوهم إلى عبادة الله وحده وطاعته.

- **النّصيحة لله:** فالنّبيّ ﷺ حدّد مواطن النّصيحة، وأوّل هذه المواطن: النّصيحة لله، وهناك معان كثيرة تندرج تحتها، ومن أعظمها: الإخلاص لله تبارك وتعالى في الأعمال كلّها، ومن معانيها كذلك أن يديم العبد ذكر سيّده ومولاه في أحواله وشؤونه، فلا يزال لسانه رطبًا من ذكر الله، ومن النّصيحة لله: أن يذبّ عن حياض الدّين، ويدفع شبهات المبطلين، ويدعو إلى الله بكلّ جوارحه، وينذر نفسه لخدمة دين الله، فيدلّ النّاس على الله، وذلك بتعريفهم على أسماء الله الحسنى والتّعلّق والتّخلّق بها.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٨٧.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن تميم الداريّ، حديث رقم: ٥٥، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنّ الدين النصيحة.

- **التّصيحة لكتابه :** وأصل التّصيحة من الإخلاص، فالإخلاص لكتاب الله أن تحسن تلاوته، كما قال ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[1]، وأن تتدبّر ما فيه من المعاني العظيمة، وتعمل بما فيه، ثمّ تعلّمه للنّاس وتدافع عن القرآن وتسعى لنشره ونشر معانيه وأخلاقه بين النّاس.
- **التّصيحة لرسوله** ﷺ: ومن معاني التّصيحة لرسول الله ﷺ: تصديقه فيما أخبر به من الوحي، والتّسليم له في ذلك، حتّى وإن قصُر فهمنا عن إدراك بعض الحقائق التي جاءت في سنّته المطهّرة؛ انطلاقًا من إيماننا العميق بأنّ كلّ ما جاء به إنّما هو وحيٌ من عند الله، ومن معاني النّصح لرسول الله ﷺ: طاعته فيما أمر به، واتّباعه في هديه وسنّته، وهذا هو البرهان السّاطع على محبّته ﷺ وكذلك الدّفاع عنه ﷺ وعن سنّته، وأن تحبّب النّاس به وبهديه ﷺ.
- **التّصيحة لأئمّة المسلمين:** المراد بهم العلماء والأمراء على السّواء، فالعلماء هم أئمّة الدّين، والأمراء هم أئمّة الدّنيا، فأمّا النّصح للعلماء: فيكون بتلقّي العلم عنهم، والالتفاف حولهم، ونشر مناقبهم بين النّاس، حتّى تتعلّق قلوب النّاس بهم. ومن النّصح لهم: عدم تتبّع أخطائهم وزلّاتهم، فإنّ هذا من أعظم البغي والعدوان عليهم، وفيه من تفريق الصّفّ وتشتيت النّاس ما لا يخفى على ذي بصيرة.

وأمّا النّصيحة للأمراء، فتكون بإعانتهم على القيام بما حُمّلوا به من أعباء الولاية، وشدّ أزرهم على الحقّ، وطاعتهم في المعروف.

- **التّصيحة لعامّة النّاس:** أمّا الموطن الرّابع من مواطن النّصيحة، قوله ﷺ: ﴿وَعَامَّتِهِمْ﴾ أي عامّة النّاس، وغاية ذلك أن تحبّ لهم ما تحبّ لنفسك، فترشدهم إلى ما يكون لصالحهم في معاشهم ومعادهم، وتهديهم إلى الحقّ إذا حادوا عنه، وتذكّرهم به إذا نسوه، متمسّكًا بالحلم معهم والرّفق بهم، وبذلك تتحقّق وحدة المسلمين، فيصبحوا كالجسد الواحد، كما حدّث رسول الله ﷺ: ﴿مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى﴾[2]. ومن ذلك قبول النّصيحة والفرح بها. كما قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، وقوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[4] أي تنصح وتتقبّل النّصيحة.

فهذه هي مواطن النّصيحة التي أرشدنا إليها النّبيّ ﷺ، فإذا عملنا بها نلنا الهدى والرّشاد، والتّوفيق والسّداد.

من الأخلاق المُحَمَّدِيَّة: السّلامَةُ من الكِبر (التّواضع)

الاسم الإلهي (المتكبّر)

مِنَ الغريبِ أن ينسبَ الإنسان شيئًا إلى نفسِه وهو ليسَ لَهُ، أو أن يدّعي الفضلَ على الآخرين وهو ليس بأفضلَ مِنهم. فمَن له الجرأةُ أن يتكبّرَ على النّاس، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: ﴿الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي رِدَائِي قَصَمْتُهُ﴾[5].

المتكبّر مُصابٌ بمرضٍ دفينٍ يجعلُهُ لا يَعتَبِرُ مِن أَحَدٍ لأنّه يَظُنُّ أنّه الأعلمُ والأفقهُ بَينَ النّاس، فهو لا يَقبَلُ الحَقّ ويُجادلُ بِالباطِلِ. قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[6].

(١) سورة المزمل، الآية: ٤.
(٢) رواه مسلم في صحيحه، عن النعمان بن بشير، حديث رقم: ٢٥٨٦، كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.
(٣) سورة العصر، الآية: ٣.
(٤) سورة البلد، الآية: ١٧.
(٥) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٠٣، كتاب: الإيمان، باب: وأمّا حديث سمرة بن جندب، الحديث صحيح.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦

كما أنّه يُصاب باضطرابٍ وقلقٍ إذا لم يَمْدَحْهُ النّاس، ولا يَقبلُ نُصحًا أو توجيهًا مِنَ الآخرين، بل يشعرُ بالوحدة والعزلة لأنّ النّاس لا يُحبّونَه. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[1].

علاج الكِبر: عندما تسمع من أقرانك كلامًا جميلًا فتشعر بانزعاج، فعليك:

- السّكوت وهذا أضعف الإيمان، وتستغفر الله تعالى، وتسأله أن يصلح قلبك.
- الاعتراف والإقرار بصحّة الكلام مع الدُّعاء له وإظهار الامتنان على جميل صنعه، "جزاك الله خيرًا". "كلامك صحيح وفي محلّه"، "فكرتك ممتازة ولم يسبقك إليها أحد"، " لقد أكرمك الله بأمرٍ لم نكن نعلمه".
- أن تعوّد نفسك على الاعتذار مع تقبّل النّصيحة، فالنّصيحة لله.

التوجيهات:

- الكبر مانع من قبول النّصيحة، فأكثر من الاستعاذة والتّحذير منه، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾.
- كن ممّن باع نفسه ووقته ابتغاء مرضاة الله تعالى، وطمعًا في رؤيته، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾.

في السّيرة والشّمائل

أمثلة عن تواضع الرّسول ﷺ:

- رغم أنّ رسول الله ﷺ كان سيّد الخلق، ولكنّه كان يجلس بين أصحابه كواحدٍ منهم، فلا يَعرفُ الغريبُ حينَ يَدخُلُ أيّهم رسول الله ﷺ. فقد كان ﷺ متواضعًا، لا يتعاظمُ على المؤمنينَ ولا يتكبّرُ، وحين يذهبُ إلى السّوق، كان يشتري حاجَتَهُ ثمّ يَحملُها بنفسِهِ.

وقد ضرب ﷺ أجمل الأمثلة بالتّواضع، فقال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

عديّ بن حاتم والطريق إلى الإسلام

كان عديّ بن حاتم الطائيّ لا يزال على دينه، وقد سبقه إلى المدينة بعض قومه، ومنهم أخته التي كانت قد أُسرت، فأطلق النّبيّ ﷺ سراحها. وبعد عودتها قالت له: "اذهب إلى محمّد، فإنّه نبيّ، وله أخلاق عظيمة".

فقرّر عديّ الذهاب إلى المدينة المنوّرة، ليرى هذا الرّجل الذي صار العرب كلّهم يهابونه. ظنّ أنّه سيجد ملكًا أو زعيمًا جبّارًا، لكنّه فوجئ حين استقبله النّبيّ ﷺ بتواضع كبير، وأخذ بيده إلى بيته.

وفي الطريق، استوقفت النّبيّ ﷺ امرأة مسنّة فقيرة، فوقف لها طويلًا يستمع لحاجتها بكلّ أدب، فتعجّب عديّ وقال في نفسه: "ما هذا بفعل الملوك"!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

ولمّا دخل بيته، لم يجد فيه إلّا وسادة واحدة، فدفعها إليه النّبيّ ﷺ ليجلس عليها، فأبى، لكنّ النّبيّ ﷺ أصرّ، فجلس عديّ على الوسادة، وجلس النّبيّ ﷺ على الأرض.

هنا أيقن عديّ أنّ هذا الرجل ليس ملكًا ولا طامعًا في سلطان، بل نبيٌّ كريم، يحمل خلقًا عظيمًا.

فما كان منه إلّا أن أسلم، وقال: "ما هذا بملك، وما هذا إلّا نبيّ!". ﷺ[1].

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ "أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِغُلَامٍ يَسْلُخُ شَاةً، فَقَالَ لَهُ: **«تَنَحَّ، حَتَّى أُرِيَكَ، فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تُحْسِنُ تَسْلُخُ»** فَأَدْخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ، فَدَحَسَ بِهَا، حَتَّى تَوَارَتْ إِلَى الْإِبِطِ، ثمّ قَالَ ﷺ: **«هَكَذَا يَا غُلَامُ فَاسْلُخْ»** ثمّ انْطَلَقَ فصَلَّى، وَلَمْ يَتَوَضَّأْ"[2]. وقد كان النّبيّ ﷺ آية ومثالًا للتّواضع، فكان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم.
- أمّا مركوبه ﷺ،فركب النّاقة والفرس وركب الحمار والبغل،. وحثَّ النّبيّ ﷺ على التّواضع فقال: **«ما نَقَصَ مالٌ مِنْ صَدَقَةٍ، وَما زادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»**[3]

وقال ﷺ: **«وإِنَّ اللهَ أَوْحى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا حَتَّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ، ولا يَبْغِي أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ»**[4]. والتّفاخر عكس التّواضع.

وقال ﷺ: **«مَنْ يَتَواضَعُ للهِ دَرَجَةً، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً، وَمَنْ يَتَكَبَّرُ عَلى اللهِ دَرَجَةً، يَضَعُهُ اللهُ بِهِ دَرَجَةً، حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ»**[5].

- وكان ﷺ يقول: **«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»**[6]. وكان النّبيّ ﷺ في مهنة أهله، فكان يساعد زوجاته في البيت. عَنْ عائِشَةَ، أَنَّها سُئِلَتْ ما كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَعْمَلُ في بَيْتِهِ؟ قالَتْ: **"كانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ، وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ ما يَعْمَلُ الرِّجالُ في بُيُوتِهِمْ"**[7]، مع أنّ نساء النّبيّ ﷺ كنّ يكفينه هذا، لكنّه كان متواضعًا، فلا يتعب أحدًا معه ويخدم نفسه بنفسه.
- وعندما دخل النّبيّ ﷺ يوم فتح مكّة في مشهد مهيب، ومعه عشرة آلاف مسلم يكبّرون، رآه أحد المشركين فارتعب من هيبته. فقال له النّبيّ ﷺ: **«هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّما أَنا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، كانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ»**[8]، أي تأكل لحمًا مجفّفًا مع الفقراء وذلك حتى يتودّد إليه.

وكان ﷺ يقول: **«آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ»**[9].

قصّة من الحياة المعاصرة: كرامة في السماء!

صعدتِ امرأةٌ إلى متنِ الطّائرة، وهي تتأفّف وتشكو من كلّ شيءٍ حولها: الزّحام، والحرّ، وصُراخ الأطفال... حتى

(١) قصّة مأخوذة من كتاب سيرة ابن هشام، كتاب: أمر عديّ بن حاتم، باب: قدوم عديّ على الرسول ﷺ وإسلامه، ٢ج، ص٥٨٠..
(٢) رواه ابن حبّان في صحيحه، عن أبي سعيد الخدريّ، حديث رقم: ١١٦٣، كتاب: الطّهارة، باب: ذكر البيان بأن مسح المرء اللّحم النيء لا يوجب عليه وضوءًا، الحديث إسناده قويّ.
(٣) رواه مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٢٥٨٨، كتاب: البرّ والصلة والآداب، باب: استحباب العفو والتواضع.
(٤) رواه مسلم في صحيحه، عن عياض بن حمار، حديث رقم: ٢٨٦٥، كتاب: الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنّة وأهل النار.
(٥) رواه ابن ماجه في سننه، عن أبي سعيد، حديث رقم: ٤١٧٦، كتاب: الزهد، باب: البراءة من الكبر والتواضع.
(٦) رواه التّرمذيّ في سننه، عن عائشة، حديث رقم: ٣٨٩٥، كتاب: أبواب المناقب، باب: في فضل أزواج النّبيّ ﷺ، الحديث حسن صحيح.
(٧) رواه أحمد في مسنده، عن عائشة، حديث رقم: ٢٤٩٠٣، مسند: النساء، مسند: الصدّيقة عائشة بنت الصدّيق ﷺ، الحديث صحيح.
(٨) رواه الطّبرانيّ في المعجم الأوسط، عن جرير، حديث رقم: ١٢٦٠، كتاب: باب الألف، باب: من اسمه أحمد، الحديث صحيح لغيره.
(٩) رواه البيهقيّ في شعب الإيمان، عن يحيى بن أبي كثير، حديث رقم: ٥٥٧٢، كتاب: المطاعم والمشارب وما يجب التورع عنه منها، باب: أكل اللّحم.

وَصَلَت إلى مقعدها في آخر الطّائرة. وهناك، لم تنتهِ المشكلة ... بل تَضاعفت حين رأت أنَّ من تجلس بجوارها **مساعدة منزل** من الجنسيّة الإفريقيّة. انتفضت السّيّدة، وغَضِبَت، ثمّ نادت مُضيف الطّيران بصوتٍ حادّ وقالت بامتعاضٍ شديد: "أنا لن أجلس بجانبِ خادمة! غيّروا مقعدي فورًا!"

حاوَلَ المُضيف تهدئتها بلطف، لكنّها لم تَهدأ، والخادمة تنظر إليها بصمتٍ وحزنٍ عميق.

ذهب المُضيف إلى قائد الطّائرة، يُخبِره بما جرى وبالضجّة التي أحدثتها تلك المرأة. وبعد لحظاتٍ قليلة، أمسكَ القائد المِذياع وتكلّم، وكلّ الرّكّاب يسمعون: "سيّداتي وسادتي، قلّما نُتيح تغيير المقاعد، ولكن اليوم سنقوم باستثناءٍ خاصّ."

رفعت السّيّدة رأسها بفخر، وأخذت تنظر بازدراء إلى الخادمة المسكينة، وهي تتهيّأ للانتقال إلى الدّرجة الأولى...

لكنّ القائد أكمل قائلًا: "نرجو من السّيّدة آشا، التّوجّه إلى مقعدها الجديد، فقد تمّت ترقيتها إلى الدرجة الأولى."

كانت المفاجأة: **الترقية كانت لمدبّرة المنزل، لا للسّيّدة المتكبّرة!**

ارتفعت أصوات التّصفيق من المسافرين، وبكت "آشا" **دموع الفرح**، بعد أن رفع الله قدرها أمام من أهانَها. وأمّا تلك السّيّدة، فجلست في مقعدها، مطأطئة الرأس، وقد التفتَ إليها الجميع.

ما أكرم الله! يعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء..

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾.

صَدَقَ مَن قال: «فَمَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ الله» [1].

في السّلوك

الإشارة: النّاس على قسمين:

القسم الأول: زَيّنُوا ظواهرهم وخرَّبوا بواطنهم، ظاهرهم جميل وباطنُهم قبيح، إذا تكلّموا في الدّنيا أو في الحسّ، أعجبَك قولهم، وراقك منظرُهم، وإذا تكلّموا في الآخرة، أو في المعنى، أخذتهم الحبْسةُ والدّهشة. فعنْ نَوْفٍ الْبِكَالِيِّ- وَكَانَ يَقْرَأُ الْكُتُبَ- قَالَ: «إِنِّي لَأَجِدُ أُنَاسًا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي كِتَابِ الله الْمُنَزَّلِ قَوْمًا يَحْتَالُونَ لِلدُّنْيَا بِالدِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأْنِ وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئْبِ يَقُولُ الرَّبُّ تَعَالَى: فَعَلَيَّ تَجْتَرِئُونَ وَبِي تَغْتَرُّونَ حَلَفْتُ بِنَفْسِي لَأَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ». قَالَ الْقُرَظِيُّ: تَدَبَّرْتُهَا فِي الْقُرْآنِ فَإِذَا هُمُ الْمُنَافِقُونَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾"[2]

وقوله: «يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ مُسُوكَ الضَّأْنِ»، كناية عن إظهار اللّين والسّهولة ليخدع ويغرّ النّاس ليتوصّل إلى حظّ نفسه من الدّنيا، ومع ذلك يدّعي موافقة ظاهره لباطنه، وهو شديد الخصومة لأهل الله، وإذا تولّى عنك اشتغل بالمعاصي والذّنوب، ليُفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنّسل بشؤم معاصيه، وإذا ذُكِّر: أنِفَ واستكبر، وأخذته حميّة الجاهليّة، فحسبُه البُعد في نار القطيعة.

---

(١) رواه البيهقيّ في المعجم الأوسط، عن عائشة، حديث رقم: ٤٨٩٤، كتاب: العين، باب: من اسمه عيسى، الحديث حسن لغيره.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن نوف البكاليّ، كتاب: فمن الطبقة الأولى من التابعين، باب: نوف البكاليّ ومنهم المرغب في المحاسن والمعالي.

والقسم الثّاني: قوم زَيَّنوا بواطنهم واهتمّوا بها كثيرًا، أمّا ظواهرهم فزيّنوها بالمعروف كما كان يفعل رسول الله ﷺ، عمّروا قلوبهم بمحبّة الله، وبذلوا أنفسهم في مرضات الله، قلوبهم في أعلى عليّين، وأشباحهم في أسفل سافلين، فأولئك المقرّبون مع النّبيّين والمرسلين. قال بعض العارفين: كلّما وضعت نفسك أرضًا، سما قلبك سماءً، وكلّ ما نقص من حسّك زاد في معناك. وفي الحديث: «**مَنْ تَوَاضَعَ لله رَفَعَهُ الله**»(١) لأنّ من تواضع دُون قَدْره، رَفَعهُ الله فوق قَدْره.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ**»(٢).

إنّ فَضْل الله سُبحانه وتَعالى على عِبادِه عظيمٌ، وهو يُعطي فَضْلَه من يَشاءُ بعِلمِه وحِكمتِه سُبحانَه، وفي هذا الحديثِ يقولُ النّبيّ ﷺ: "**ربّ أشعَثَ**" والأشعثُ: الذي يكونُ شَعرُ رَأسِه مُتفرِّقًا، غَيرَ مَدهونٍ، "**أغبَرَ**" وهو الذي أصابَه الغُبارُ حتَّى تغيَّرَ ظاهرُ لونِه، "**ذي طِمْرين**" الطِّمرُ: هو الثَّوبُ الخَلِقُ البالي، "**تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ**"، أي: لا يُحْتَفَلُ به؛ لِحَقارتِه، "**لو أقسَمَ على الله**"، أي لو أقسَمَ على فِعلِه سُبحانَه بأنْ حَلَفَ أنَّ الله يَفعَلُ كَذا أو لا يَفعَلُه، "**لَأَبَرَّه**"، أي: لَصَدَقَه وصدَقَ يَمينَه، وأبرَّهُ فيها بأنْ يأتيَ بما يُوافِقُه، ومِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ، " فَإِنَّ الْبَرَاءَ لَقِيَ زَحْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ أَوْجَعَ الْمُشْرِكُونَ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا: يَا بَرَاءُ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «**إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى الله لَأَبَرَّكَ، فَأَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ**» ، فَقَالَ: «**أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، ثُمَّ الْتَقَوْا عَلَى قَنْطَرَةِ السُّوسِ، فَأَوْجَعُوا فِي الْمُسْلِمِينَ، فَقَالُوا لَهُ: يَا بَرَاءُ، أَقْسِمْ عَلَى رَبِّكَ، فَقَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لِمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا**»(٣) وفي الحديثِ: مَنقبةٌ ظاهرةٌ للبَراءِ بنِ مالكٍ ﷺ، وفيه بَيانُ فضْلِ الله على الضُّعفاءِ الطَّائعينَ مِن عِبادِه.

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: "سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»(٤) وذلك لتكبّرهم واتّباعهم دين إبليس.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ، يَقُولُ الله تَعَالَى: أَفَبِي تَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ تَجْتَرِئُونَ، فَبِي حَلَفْتُ لَأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ مِنْهُمْ حَيْرَانَ**»(٥).

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، عن أبي هريرة، كتاب: ذكر طوائف من جماهير النسّاك والعباد، باب: إبراهيم بن أدهم ومنهم الحازم الأحزم، الحديث حسن غريب.
(٢) رواه الحاكم في المستدرك، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٧٩٣٢، كتاب وباب: الرقاق، الحديث إسناده صحيح.
(٣) رواه الحاكم في المستدرك، عن أنس بن مالك، حديث رقم: ٥٢٧٤، كتاب: معرفة الصحابة ﷺ، باب: ذكر البراء بن مالك الأنصاريّ أخ أنس بن مالك ﷺ، الحديث صحيح.
(٤) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي سعيد الخدريّ، حديث رقم: ٥٠٥٨، كتاب: فضائل القرآن، باب: إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به.
(٥) رواه ابن المبارك في الزهد، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥٠، باب: من طلب العلم لعرض في الدُّنيا.

عن بريدة ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي شَكُورًا وَاجْعَلْنِي صَبُورًا وَاجْعَلْنِي فِي عَيْنَيَّ صَغِيرًا وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا»[1].

الآيات ٢٠٨-٢١٢

الدّعوة إلى قبول الإسلام واتّباع أحكامه وجزاء المخالف

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

سبب نزول الآية (٢٠٨): نزلت الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه من اليهود، لمّا عظّموا السّبت وكرهوا الإبل بعد قبول الإسلام، قالوا: "يَا رَسُولَ اللهِ، يَوْمَ السَّبْتِ يَوْمَ كُنَّا نُعَظِّمُهُ فَدَعْنَا فَلْنُسْبِتْ فِيهِ، وَإِنَّ التَّوْرَاةَ كِتَابُ اللهِ، فَدَعْنَا فَلْنَقُمْ بِهَا بِاللَّيْلِ فَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[2]".

وعن ابن عبّاس ﷺ قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام وأصحابه، وذلك أنّهم حين آمنوا بالنّبيّ ﷺ، قاموا بشرائعه وشرائع موسى، فعظّموا السّبت، وكرهوا لحم الإبل وألبانها بعد ما أسلموا، فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إنّا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنّبيّ ﷺ: إنّ التّوراة كتاب الله، فدعنا فلنعمل بها، فأنزل الله تعالى هذه الآية[3].

المناسبة: أوضح الله سبحانه وتعالى في الآيات السّابقة أنّ النّاس في الصّلاح والفساد فريقان: فريق يفسد في الأرض ويخرب العامر، وفريق يبغي بعمله رضوان الله وطاعته، وأتبع ذلك هنا بأنّ شأن المؤمنين الاتّفاق والاتّحاد، لا التّفرق والانقسام، فأمرهم بقوله: كونوا على ملّة واحدة، واجتمعوا على الإسلام واثبتوا عليه.

---

(١) رواه البزّار في مسنده، عن بريدة، حديث رقم: ٤٤٣٩، مسند: بريدة بن الحصيب رضي الله عنه، الحديث حسن.
(٢) ذكره الطبريّ في تفسيره، عن عكرمة، باب: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا﴾، ج٣، ص٦٠٠.
(٣) ذكره الواحديّ في أسباب نزول القرآن، ج١، ص٦٨.